قصة بقلم
فائز محمود

شيء من أعماق النفس كان يطوف فوق ضفاف الحاضر .. شوق الى الماضي مملوء بالحـــزن ، وبالذكريات ، وبالحب ، والحنيـن .. ورغبة عميقة لاكتناه المستقبل ، مفعمة بالسمو وبالطهر والقدسية .

كنت اتمشى على درب لم اسلكه منذ اعـــوام كثيرة .. ووجدتني اول ما افعل في اجازتي السنوية لهذا العام ، ان قررت اعادة النظـــر في حياتي حتى الآن .. وها أنا اتمشى في هذا الدرب القريب الـــى نفسي وقد زامل معظم ايام مستهل شبابي ... الخلاء المهيب يجلـــل الآفاق بالروعة ، متألقا باشعة الشمس ، متشعشعا بالنضارة والجدة .. ولخطوي وقع موسيقي تنبسط له كافة ذرات جسدي وروحي .. والافق باستمرار يلوح لي بعيدا ، لكنه كالامل يبعث رغـــم نايه شعورا عميقا بالراحـــة .

دفقت في باطني مشاعر مبهمة ، علت بي فوق امواج مشاكلي هذه الايام .. اخذت اسير وسط ضباب كثيف يغمـــر بصري ووعيـي .. واستمرأت هذا ، فركزت ارادتي كي يتصاعد ويتعالى اكثر ..

أحن الى ماذا ؟!

أانا يقظ ، أم في حلم ؟

بقيت في تلك الايام الطفولية ، التي عشتها فـــي مرحلة عمـــري الاولى ، انتظر من « الله » ان يهمس لي بكلمته المقدسة .. انتظرتـــه اياما طويلة ، اجلس بجانب تلك الربوة ومعي كتاب ودفتر اطالع حينـــا وانتظره حينا آخر يهبط عليّ بوحيه كي اسجله ، لانني لا اثق بذاكرتي في الحفظ ، واثق من جهة اخرى بالكتابة اكثر .

واذكر لا أزال يوم وفاة جدتي وانا طفل .. قالـــوا انهـــا ماتت بسبب مرضها .. لكنني أعهد نفسي مرضت كثيرا ولم أمت . وكثيـــرا ما علمت بمرض غيري ، وكانوا يشفون . لم اكن قد سمعت ان احـــدا مات من المرض سوى جدتي .. وكان يبلغني بان اناسا يموتون ، لكنني لم احفل بفهم معنى ذلك وسببه .. حاولت ان ادنو من جدتي المتوفاة، فمنعوني .. تعجبت .. ولقد هرولت مع الجنازة ، وشاهدت حفـــرة القبر .. وقفت مشلولا وانا أراها تنزل بداخل الحفرة ، ويهال عليهـــا التراب .. وحينما بدأ أهلي والمشيعون يعودون ، رغبت بحـــرارة ان ابقى ، لكنهم عادوا بي معهم ... هناك ترقد جدتي ، وتطلعت نحو المقبرة التي كنت امر بمحاذاتها على بعد يسير . فكرت بقراءة الفاتحة علـــى قبرها ، لكنني عدت وعزفت ، فما جدوى ذلك ؟!

كنت قد علوت هضبة فسيحة ، وترامت امام بصري آمـاد شاسعة من الصحراء : وديان ، وسهول ، ومرتفعات ، وتـــلال ، وحجـــارة ، والتراب ، واعشاب ، والسماء ، وغيـــوم ، وهواء عليـــل .. صمت ، ومضيت اداب في نقل خطواتي بتلقائية خلت انها لن تتوقف ، وقد مدني ذلك براحة جسدية مشبعة بالشعور بالقوة .

وفكرت بنفسي : لا بد ان هناك الها .. واردفت بعد تفكير قصير آخر : اله آخر غير الذي شوهته الاديان .. وتمنيت في نفسي وجوده.

كنت أشعر بغبطة لا توصف حينما أسمع حكايا جدتي الخرافية ، او حينما اقرأ القصص الاسطورية وانا صغير السن .. حينما كبرت ، تبدد سحر هذه العوالم .. ولم يعد هناك جديد في ايامي ، كل يـــوم يمر اشعر بنفسي ازددت ضياعا وفقدت عنصرا مهما من كياني .. ومنظر جسدي الذي بان عليه التغير والنمو الزائد يقرفني ، بالاضافة الـــى شعوري بانه يتحداني ويغدر بي .

بقيت أتمعن في الشمس ، أطلت التمعن ، وشعرت بعينيّ تتفجران ذرات مشعة من النور الساطع الوهاج ، حتى خلت ان كل جسدي تفجر نورا .. وراجعت في نفسي المعلومات التي اعرفها عن الشمس ، فلـــم أرتح لها وظننتها سدا يقصيني عن الشمس بدل ان يوصلني اليها .

مسحت عينيّ واغمضتهما مـــرارا حتـــى استعاد بصري رؤيتـــه الطبيعية .. كنت مبتهجا بكل ما في الخلاء من موجودات .. منذ اعوام وانا في المدينة : يوميا اسير من المسكن الى الدوام ، والـــى المطعم ، والى السينما ، والى والى ، ودوما العمارات تزحم الفضاء ، والشوارع تغص بالناس ، والفلوس هي كل شيء اذ تختصر علاقاتنا في هذه الحياة.

أمسكت بيدي حفنة من التراب . من يدري منذ متى لـــم أفعـــل ذلك . لا ريب منذ انتهاء الطفولة .. واخذت اقلب الحفنة ، والتـــراب يتخلل اصابعي وقد سرت بي فرحة بريئة لا قرار لها .. وتخيلت فـــي نفسي زملائي ومديري في العمل لو شاهدوني ماذا افعل الآن . ولـــم اتمالك نفسي ففحكت ، لكنها ضحكة فـــي ضميري كانـــت مملوءة بالسخرية ، وباشياء جمة اخرى اعقد من ان اطمح بتعليلها في هـــذا الموقف .. يوم اجزت سألوني أين ستقضي اجازتك : في بيروت ، فـــي القاهرة ، في تركيا .. ولم يخفوا علـــيّ استهجانهم بجوابي الـــذي ظلوا يتندرون به امامي : يـــود « خريستوفر كولمبس » ان يكتشف مجاهيل نفسه ، نتمنى لك رحلة موفقة واجازة طيبة .

أصخت السمع والتقطت انفاسي .. السكون يعم المكان ، ما عدا زقزقة العصافير وصراخ الرعيان وجلبة ماشيتهم التي تصلني من بعيد .. اي نوع من الوجود يحياه هؤلاء الرعيان ، وأهل البادية ، في هذا العصر ؟ لكنني فطنت بسرعة اننا في بلادنا ، كلنا نحيـــا حضاريا نفس المستوى المنحط من الوجود ، مع الفارق في الدرجة لا غير .

شعرت بحاجة لكي ابوّل .. وانا قابض العضو المخصص لذلك ،

تذكرت بدء مراهقتي يوم مار جسدي بالشهوة في المرات الاولى وتلطخت براءة روحي .. جهدت كثيرا كي اخضع شهوتي ، وكـــم كنت سعيدا حينما كنت ابوّل في تلك الايام فانظر الى هذا العضو بزهو مقررا في نفسي ان هذه هي وظيفته الوحيدة كما يجب .

انتهيت من ذلـــك ، ومضيت امشيء ببطء ، واسترسلت فـــي تفكيري ذاك : ومع هذا فلقد اعتبرت نفسي في البداية قد سقطت ، ومن بعد اعتبرت ما حصل امرا طبيعيا ليس بحاجة الى معاناة او مكابرة .. لكنني بصراحة حينما بلغت هذه النقطة من تفكيري وجدتني اتمنى فـي خاطري لو تهذبت هذه الغريزة ، لو زالت نهائيا اذ لا يمكنني رغم كـل شيء ان اقتنع باننا غدونا محترمين وهي تلازمنا .

لاحظت ان التفكير بالجنس ، حيث كنت في الخلاء ، يفقد خاصيته التي لا تقاوم . وتذكرت ما كنت قد طالعته فديما بهذا الخصوص ، ممـا يؤكد هذه الملاحظة .. وفكرت في نفسي : ذلك لان الجنس يتأجج فـي حالات بؤس الروح وهمود الارادة ، وهذا الضرب مـــن الحياة المدنية المسخ الذي نحياه يعطل حيويتنا العامة ومن ثم يستنزفها من خلال هذا الثقب ، هذه الحيوية الخاصة التي تندفق فـــي مجـــرى عريض يقطع خارطة الانسان المعاصر من اعلاها الى ادناها .

كنت قد ابتعدت عن قريتي التي غابت عن مدى بصري ، حينمـــا فكرت بانه يجب علي ان ابدأ بالعودة من الآن حتى لا يدهمني ظلام الليل وسط الصحراء . بعثت بي فكرة التراجع كآبة وشعورا بالقهر ، لهـذا واصلت مسيرتي حتى احتفظ بنفسيتي المتقدمة .

بدأت اقارن في سريرتي كيف ان حبي لانعام كان خاليا من الشهوة .. وبمجرد ذكراها غمرني هدوء مملوء بالحزن والاستسلام ، شعرت انه يغسلني حتى النصاعة .. بدوت لنفسي هكذا زاهدا اكثر مما يحتمل.. دوما أظل اسير ذكرياتها الماضية ، هذه الحبيبة الغادرة .. اذ تمتمت بهذه الالفاظ بصمت ، شعرت بانني قد كفرت ، اذ رغم النهاية المفجعة لحبي اياها فان ايام ودها وحبها السالف تظل في وجداني اعمق واكبر من الصد والهجران والغدر والفراق الابدي .. ووجدتني ادعو لهـــا بالتوفيق وبالسعادة .

اوشكت على بلوغ سلسلة من التلال يعلوها جبل شاهق .. والليل بدا يتميز ، ولقد فكرت بنفسي أيعتبر حب الطبيعة وعشق الارض امرا غير مناسب ؟ وايضا رغبتي في احيان كثيرة للغناء : اهي حاجة سطحية .. وعلا صوتي بالغناء ، وكنت اسمعه حزينا للغاية فيتضاعف وجـــدي واســاي .

شعرت بالبرد ، وحتى اقاومه بدأت اهرول قليلا ، لمسافة طويلة ، حتى شعرت بجسدي دافئا .. لاحظت ان الغيوم قـــد بدأت تتكاثف ، واستذكرت ساعة قررت الخروج الى الخلاء في يوم ماطر ووصلت الـى مسافة بعيدة راكضا وقد استمتعت مـــن جراء ذلـــك بتجربة لا زالت ذكراها عالقة في مخيلتي .. اذن لا بأس ، فلـــو هطل المطر الآن فانني ساستمتع ثانية بمثل تلك التجربة .

بدا رذاذ المطر يهمي ، فتوقفت . كـــان البرق يسطع ويتلاشى ، والليل ساكنا عميقا ما عدا صوت المطر الدافىء .. شعرت كانني فـــي حلم يثير الغبطة الزائد ، وراودتني رغبة شديدة لكي أضحك ، لكـــي افعل اي شيء أعبر به عن هذه الغبطة الآسرة .. تقت وانا في هـــذه الحالة ، لو كانت مساكننا تبعد عن بعضها بحيث تظل الطبيعة الخالدة تحتضن هذه المساكن ، فتغدو الارض كلها ككوكب مدينة واحدة تضم كل الناس بمساكنها ومصانعها ودوائرها ومزارعها ..

لم يكن هناك بد من العودة .. الزمن الشتوي الماطر الذي يفصلني عن قريتي ، يفرقني بالكآبة والضجر وبالخوف .. بعد مـدة شعرت ان الارض قد غدت موحلة ، فلم يعد بمستطاعي ان اغـــد السير دون ان اخشى الانزلاق . بدأت ثيابي تبتل . كانت نوبات البرودة تنتابني مـا بين درجة القشعريرة حينا ، حتى البرودة المحتملة حينا آخر .. وهكذا وجدتني بعد حين غير طويل ، أتوقف عن التفكير وعـن كافة الاحاسيس ما عدا مقاومة البرد الذي أخذ يستفحل ، والاهتمام بمواقع قدمي حتى لا أتعثر ، وايجاد طريقي عبر الظلام السائد .

تهيأ لي انني قطعت مسافة طويلة ، حينما انتابني رعب اقشعر له بدني . بحلقت حولي وانا ارتعش خوفا ، فلم ار شيئا مما خطر علـــى بالي : أمن الممكن ان يكون ضبع هناك بالقرب مني ؟. هذا محتمل فـي الصحراء ، وفي الظلام .. اخذت انقل خطواتي بتمهل وانا التفت مـع كل خطوة الى كافة الجهات لا افاجا ، وقد استجمعت عزيمتـي وقررت السيطرة على جبني حتى لا يضبعني الوحش .

تعالى دوي السماء بعنف اثار الفزع فـــي نفسي اكثر ، ولمعت الآفاق بالنور الساطع المتلاشي ، وفي غضون ذلك تخلصت مـــن شبح الوحش .. فكرت بنفسي وانا اسير بهمة ، بانها كانت ستغدو ميتـــة كلها سخريه ، ان يموت انسان في هذا العصر بين فكي ضبع .

بيني وبين العالم هذا المطر الغزير الهاطل من السماء ، والليل ، ومكاني البعيد ، وهي فواصل تملؤني جزعا ولكانني وحيد فـــي كوكب مهجور باقاصي الكون رغم ما ينبض به باطني مـــن ادراك وفهم وحب للاخرين .

ويظل الافق مظلما مع انني سرت كثيراً ، حقا لقـــد توغلت فـي الذهاب اكثر مما ينبغي ، وايضا كم كنت مغفلا حينما اعتقدت بانـنـــي ساستمتع بتجربة اخرى في الخروج الى الخلاء المطر ، اما الليل فلم يكن بالحسبان .

حينما بزغت اضواء قريتي من بعيـــد ، شاحبة تفيض بالحزن ، ولكانها باخرة تمخر عباب محيط مائـــج ، خفق قلبـــي بفرحة الغريق المشرف على الهلاك حينما بدت له بادرة نجاة .

***

من حيث اتيت الوادي وجدته طائفا ، ومع هذا امضيت وقتا طويلا وانا ادور وابحث عبثا .

وكلما تقدمت ووضعت قدمي لاخوض الوادي ، شعرت بانني أكاد اسحب ، فاتراجع بسرعة .

وتلتمع قريتي من بعيد كسراب لا يمكن ان يدرك .

وبمحاذاة الوادي الغريق جلست القرفصاء ، والمطـــر يتساقط بغزارة ، والسماء مكهربة ، والليل كوحش اسطوري.. كابوس لا يحتمل، كم رجوت في نفسي لو انه كان حلما .

اخذت انتفض مـــن شدة البرد ، وبـــدأت انتحب ، استملكتني قشعريرة سامة .. فنهضت .. ورميت بنفسي فـي الوادي المتدفق اذ لا سبيل هناك لنجاتي سوى عبوره .. ففي هـــذه المخاطرة يكمن بعض الامل بالنجاة ، اما ان تقاعست فهلاكي مؤكد .

وكان الوادي ثائرا متلاطما مملوءا بالحفر والحجارة والصخور .

عمـان

فائـز محمود

المكتبـــة الوطنية وفروعها

البحرين ـ الخليج العربي

وكلاء توزيع كتب ومجلات وادوات مدرسية

اطلبـوا منهـا

مجلـة « الآداب » ومنشورات « دار الآداب »